



بعثت إحداهم برسالة إلى ابنتي تتحسر فيها على أيام ما قبل الثورة السورية، وما كان فيها من أمن وهدوء وفرح، فلا دمار للمساجد والكنائس، ولا انقطاع للكهرباء، ولا قتل ولا غير ذلك.

لن أطيل عليكم يا سادة؛ فالرسالة طويلة، وتضفي على نظام الأسد من الصفات والمناقب حتى ليعتقد قارئوا هذه الرسالة أنّهم في زمن الخليفة العادل عمر بن الخطّاب، أو أنّهم في زمن الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز.

وقبل أن أتحدث عن البواعث الحقيقة، والدّوافع الخفية لمشاعرها تلك، والتي دفعتها لكتابته ما بعثته، هنا لا بدّ أن أذكر هذه وأمثالها بأنّ الحرية التي تحدثت عنها طالت الصغير قبل الكبير بحيث تساق المرأة مع بناتها اللاتي لم يولدن في بلد़هن إلى فروع الأمان المختلفة، وتجري لهنّ عمليات التخويف والترهيب قبل دخولهن على المحقق، وانتزاع اعترافهن بإرهاب والدهن المجرم والذي فرّ من يد العدالة في ثمانينات القرن الماضي.

إنّ الحديث عن الأمان يعني أن تقضي إجازتك بين فروع الأمان، وفي هذه الفروع الأمنية لا بدّ أن تقع عيناك على مجموعة من الشباب جاؤوا لدفع الأتاوة المفروضة من قبل المبتزين، ومن قبل السماح لهم بعدها بالحصول على تأشيرة خروج للعمل فوق سفينة مبحرة إلى هنا أو هناك في أرجاء المعمورة، أو السماح لهم بالعمل في دولة خليجية أو أوربية أو غيرها.

وإذا تحدثنا عن الأمان، فالامن الذي يريدونه هو الهدوء الذي يعني إغلاق الفم، والصمت المطبق، وعدم الحديث عمّا يعانيه الإنسان من ضائقـة مادية، أو نقد لتصرف أيّ مسؤول صغر أو كبر مقامه في النظام الحاكم، إنّ الأمان الذي يريدونه هو أمن القبور.

حدثتني أمّ صاحبة الرسالة أنها رأت بعينيها في عهد الوالد الأب وأثناء أحداث الثمانينات كيف أتى بشباب من إحدى مناطق حلب وطلب منهم رجال أمن النظام أن يصطفوا ووجوههم إلى الحائط، ثمّ بدؤوا بعدها بإطلاق الرصاص عليهم؛ ليقتلوا؛

ولتبقي دمائهم على الحائط ولأسابيع عديدة شاهدة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

ربما خشي أهل صاحبة الرسالة من الحديث أمامها مثل الكثير من شهدوا أحداث الثمانينات خوفاً على أنفسهم من النظام، فلم تسمع بما فعله رفعت الأسد في مدينة حماه، أو ماذا حدث في سجن تدمر، وربما لم تسمع بما فعله ماهر الأسد في سجن صدنايا.

إنَّ الحديث عن الأمان في سوريا الأسد - كما يحلو أن يقول ذلك أتباع النظام - يحتاج إلى مجلدات، ولا يمكن لمقال صغير، ولا حتى لكتاب أن يفيه حقه.

أما الرفاهية التي ذكرتها، فلعلَّها لم تزر أماكن لا تبعد عن بيتها سوى عشرات الأمتار، لترى الفقراء والمساكين في الصباح وهم يبحثون في حاويات القمامنة عن بقايا طعام أو خبز، ولعلَّ عينيها تجاوزت الأطفال الصغار الذين يحملون البضائع البسيطة، يبعونها على قارعة الطريق؛ ليعودوا بمبلغ بسيط يستطيع الأهل الاستعانت به في حياتهم البائسة في الوقت الذي يجب أن يكون هؤلاء الأطفال في مدارسهم.

لعلَّ هذه الفتاة نسيت أنَّ أخاه المدرس وأخاه الآخر الذي لم يكمل تعليمه الجامعي اضطرا للخروج للعمل في دولة خليجية؛ لكسب المال والعيش، والتمكن من الزواج وتأسيس أسرة، وأنهما كانا أوفر حظاً منآلاف الشباب الذين لم يجدوا فرصة للعمل في بلدتهم لأنَّ العمل متوفَّر فقط لمن يعلن ولاءه وخضوعه للنظام.

إنَّ الرفاهية الموجودة في سوريا الأسد هي رفاهية من شارك النظام في سرقة الشعب.

أما الجامعات فهي للمحظوظين فقط، ولمن أفنى وقته في الدراسة، أو من حصل على دورات في فن الدفاع عن النظام. أما الكهرباء ... فسألوا أهل بانياس، ففي الوقت الذي يحلُّ الظلام على المدينة، وتقطع الكهرباء، كنت تجد الأضواء منبعثة من قرى طائفة النظام؛ لتعبر عن الظلم الذي وقع على أهل المدينة، والذي عليهم أن يتحملوا المخلفات والأثار الضارة للمحطة الحرارية الممزروعة قرب بيوتهم.

وحديثها عن الفرح يبدو غريباً في الوقت الذي يخيِّم الحزن والشوق والأسى على حياة هؤلاء الذين غاب عنهم أبناؤهم في بقاع الأرض المختلفة، أو غيَّبهم النظام إما في السجون، أو تحت الأرض.

أما هذا الفرح فقد تكون هذه الفتاة وجدته في الرحلة التي يصحبهم فيها الأخ الأكبر بسيارته التي جلبها معه من الخليج، وإلى حيث الساحل السوري بطبيعته الخلابة، وحيث الرفاهية التي قدمها الرئيس لبعض أبناء طائفته القليلة، في الوقت الذي تنعدم هذه الرفاهية عند أكثرية الشعب من السنة.

وليت هذه الفتاة لم تتحدث عن تدمير الكنائس والمساجد، لأنَّ من تتحسَّر على أيَّامه قبل الثورة هو من هدمها ببراميله المتفجرة التي يلقِيها من طائرات يقودها مرتزقة ومتطوعون أو مبتعثون من إيران وغيرها، جاؤوا من أقصاصي الأرض لا يجمعهم إلا حقد مئات السنين، والرغبة في قتل مئات ألف أخرى، وحتى يرضي عنهم المسرد، والذي لن يخرج قبل أن تمتلئ الأرض بدماء العرب السنة.

نعم يا سادة، الحديث أقطعه قطعاً، والنفس فيها الكثير والكثير مما تودُّ أن تخرجه، ولكنني أذكر هؤلاء الرماديين والمخدرين الواهمين، والذين لا يرون السعادة إلا في توافه الأمور، وإنَّ إذا حامت فوق رؤوسهم دون غيرهم، ودون أن يلتفتوا إلى أحزان الآخرين وهمومهم، أذكر هؤلاء بقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حُرْفٍ إِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَانٌ بِهِ، وَإِنَّ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ أَنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، خَسَرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمُبِينُ}